العنوان الثالث

الاعتماد الداخلي

يُذكر للأمة في سجل إنجازاتها، أن تجعل من الجودة علامةً فارقة، في مؤسساتها، وأن تجعل التميز عنوانها، ويُعد من معالم الثقة، والتمكن أن تُعتمد هذه المؤسسات من جهات خارجية، مشهود لها بالمكانة، والتمكين في مجال اختصاصها. يسبق هذه الانجازات الخارجية، إنجاز لازم حازم، ذلكم هو البعث النفسي، والاعتماد الداخلي، والتجويد الذاتي، والاعتزاز بالهوية، وقبول التحدي، إنها مصطلحات، ذات دلالة واحدة، تعني وجود الثقة بالنفس أولا.

إن خيرية هذه الأمة سُنَّة قدرية، جعل منها القرآن الكريم قدراً مقدوراً، وواقعاً منظوراً قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ سورة آل عمران (الآية: ١١٠)، تبقى هذه الخيرية في الأمة، قائمة على مرِّ العصور، وإن علاها ضعف وبدا منها قصور أو قعد بها فتور، حين تكون متمثلة بطائفة من أفرادها (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خالفهم أو خذلهم)[1].

(١) رواه مسلم، باب لا تزال طائفة، حديث رقم ٤٩٥٠

يحسن بالأمة وهي تسعى للنهوض، وتستعد له، أن تستدعي معالم عظمتها، التي حكمت لها نصوص من الشرع، وشهدت لها صفحات من التاريخ، وصرخت بها مظاهر حضارتها.

نحن بكل فخر، مَنْ صنع الحضارة الإنسانية، وكتب صفحات التاريخ الوردية، نحن مَنْ أخرج الله بنا الناس من الظلمات إلى النور، ومن التخلف إلى التقدم، ومن الجهل إلى العلم، نحن سادة الدنيا، ومعلمو البشرية الخير، وروادها حيناً من الدهر.

نحن الرواد الأوائل، في التفضل على البشرية بالمكتشفات التي يصعب حصرها، في هذا المقام، ألسنا نحن – على سبيل التمثيل لا الحصر – أول من استخدم أمعاء الحيوانات لخياطة الجروح، وأول من استعمل طريقة الاستنشاق، في عملية التخدير.

ونحن أول من اكتشف طفيلية الجرب، التي سمَّاها ابن زهر صؤابه، ونحن أول من كشف عن مرض الحساسية، ونحن أول من اكتشف الدورة الدموية.

ونحن أول من أجرى عملية تفتيت حصى المثانة، ونحن أول من قام بعملية استئصال اللوزتين، أليس منا الرواد العظماء، الزهراوي ت ٤٢٧هـ، والذي يُعد أول من ربط الشريان لمنع النزيف. أليس منا ابن الجزار ت ٣٦٩هـ، وهو أول من ألف كتاباً في الأمراض الباطنية. أليس منا أبو بكر الرازي ت ٣١٣هـ، وهو صاحب المؤلفات في الأمراض المعدية.

أليس منا عمَّار الموصلي ت ٤٠٠ هـ، أول من ألف في طب العيون. أليس منا البغدادي ت ٦٢٩هـ، وهو أول من وصف العلامات الدالة على مرض السكري. أليس منا ابن النفيس، ت ٦٨٧هـ، وهو أول من اكتشف الدورة الدموية.

ماذا عسى المرء أن يذكر، وأن يدع مما يملأ الصفحات، غير ما سُرق منا، ونسبه علماء الغرب إلى أنفسهم، في ساعة غفلة مرت بنا، أو غفوة ألمت بنا.

إن الأمة التي أنجبت للبشرية هؤلاء، وأمثالهم، لهي قادرة بإذن الله أن تنجب أضعافهم، وقد أنجبت أضعافهم بحق، واسأل أسراب الطيور المهاجرة، التي رصدت أسراب العقول المهاجرة، من ديارنا إلى ديار الغرب.

حين كانت قرطبة تضاء ليلاً، بعشرة آلاف قنديل، كانت روما تغط بظلام دامس، يُعاقب مَنْ يفكر في إضاءة شمعة تنتهك حرمة هذا الظلام، وقداسته، بأمر من أعلى سلطة فيها[٢].

لا يتسع هذا المقام لتقليب الصفحات، وسرد المعلومات، ولكن حسبي أن أورد رسالتين متبادلتين، احتفظ بهما التاريخ، معلماً كبيراً، وسراجاً منيراً.

(٢) شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٣٩٤، زيغريد هونكه، تعريب فاروق بيضون وكمال دسوقي، ط١ ، بيروت، المكتب التجاري

الرسالة الأولى ونصها هو: من جورج الثاني، ملك انجلترا، والسويد، والنرويج، إلى صاحب العظمة خليفة المسلمين، هشام الثالث، الجليل المقام في الأندلس.

بعد التعظيم، والتوقير:

فقد سمعنا عن الرقي العظيم، الذي تتمتع بفيضه الصافي معاهد العلم، والصناعات، في بلادكم العامرة، فأردنا لأبنائنا، اقتباس نماذج من هذه الفضائل، لتكون بدايةً حسنةً لاقتفاء أثركم، لنشر العلم في بلادنا، التي يحيط بها الجهل، من أركانها الأربعة.

وقد وضعنا ابنة شقيقنا، الأميرة دوبانت على رأس بعثةٍ من بنات الأشراف الإنجليز، تتشرف بلثم أهداب العرش، والتماس العطف، وتكون مع زميلاتها، موضع عناية عظمتكم، وفي حماية الحاشيةِ الكريمةِ.

وقد أرفقت الأميرة الصغيرة، بهدية متواضعة لمقامكم الجليل، أرجو التكرم بقبولها، مع التعظيم والحب الخالص.

من خادمكم المطيع/ جورج الثاني

أجاب الأمير هشام الثالث رحمه الله تعالى على رسالة الملك جورج الثاني، بالرسالة الجوابية التالية:

الحمد لله، رب العالمين، والصلاة، والسلام، على نبيه سيد المرسلين، وبعد: إلى ملك انجلترا، وأوكسوسيا، واسكندنافيا، الأجل.

اطلعت على التماسكم، فوافقت على طلبكم، بعد استشارة مَنْ يعنيهم الأمر من أرباب الشأن، وعليه نعلمكم أنه سوف يتفق على هذه البعثة، من بيت مال المسلمين، دلالة على مودتنا لشخصكم، الملكي، أما هديتكم، فقد تلقيتها بسرور زائد.

وبالمقابل، أبعث إليكم بغالي الطنافس، - أي البسط الأندلسية -، وهي من صنع أبنائنا، هدية لحضرتكم، وفيها المغزى الكافي للتدليل على التفاتتنا، ومحبتنا. والسلام(٣).

خليفة رسول الله في ديار الأندلس/ هشام

(٣) انظر نص الرسالتين في العرب عنصر السيادة في القرون الوسطى، ص ٨٦، تأليف المؤرخ البريطاني جون دوانبوث

يحسن بي أن أخلّي بين القارئ الكريم، وبين هاتين الرسالتين، ليذهب مع مضامينها حيث شاء، لكني أسجِّل فقط أن إعجاب قادة الغرب بالإسلام لم يختفِ، فهذا القائد الألماني المشهور بسمارك، يقول: "أعطوني عشرة آلاف مسلم، أفتح لكم بها العالم".

حسبي أن سُنة التداول التي قدرها الله تعالى بقوله ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ سورة آل عمران (الآية: ١٤٠)، تأذن بتكرار مثل هذه الرسائل، على هذا النحو نفسه، وما ذلك على الله بعزيز.

ذكرت مؤسسة العمل العربية أن قرابة نصف مليون عالم عربي من حملة الشهادات العليا هاجروا واستقروا في الدول الغربية وكندا وأمريكا يحضرني منهم د. مجدي يعقوب، و د. أحمد زويل، و د. أحمد القاضي، و د. فاروق الباز.

وأحسب أن نصف مليون آخر من العلماء المسلمين غير الغرب قد استقروا في الغرب على مدى الخمسين عاماً الماضية.

لقد أرهق جوادُ هذهِ الأمةِ رجالاتِ الشعوب الأخرى، وهي تلهث خلفه، لكنه ساعة أن كبا – ولكل جواد كبوة – أطبقوا عليه، فأخرجوه من ميدان السباق، وقد كان لهم ذلك، وصارت أخبار هذا الجواد على هامش صفحات التاريخ، بعد أن كان المتن كله، لأخباره، والميدان كله لغباره.

يتهكم بعض رجالات الغرب على هذه الأمة، لبثِّ اليأس فيها، فيقولون: لقد اخترع المسلمون الصفر، وجلسوا فيه، وتلك شنشنة نعرفها من أخزم، ولا عجب.

إن الذي يسترعي الانتباه، ويبعث على القلق، أن تنبت نابتة في هذه الأمة تحترف جلد الذات، ولا تحصي إلاّ العثرات، وتتوهم أن هذه الأمة قد طوي كتابها، وانقضى خطابها، فلا ينفع فيها التجديد، ولا يُحسِّنها التجويد.

لقد قال النبي ﷺ كلمته، في أولئك الذين يروجون لثقافة اليأس، وكانت كلمةً بليغةً، حين قال: " إذا قال الرجل هلك الناس فهو أهلكهم"(٤).

للحديث معنيان متعاضدان، يناسبان مقام هذه الطائفة، في ضوء ضبط الكاف، في (أهلكهم)، هل هي بالرفع، فيكون القائل أول من يُصيبه الهلاك، أو بالنصب، فيكون القائل سبباً في حصول الهلاك، فقد حكم النبي ﷺ بالهلاك، على كل مَنْ زعم أن هذه الأمة، قد انتهى أمرها، وانقضى دورها، ونُكست رايتها. إن مَنْ يحكم على أمته بهذه الأحكام، فإنه أهل لأن يلحق به الهلاك في دنياه، وآخرته، لما اقترف من جريمةٍ في حق الأمة كلها. فقد باء بالهلاك وحده، وكان أشدَ الأمة هلاكاً.

إذا كان النبي ﷺ حذَّر المسلم من النيل من أخيه المسلم باحتقاره أو التطاول على قدراته أو تجاهل إمكاناته، فكيف بمن تصدر عنه هذه الأحكام السلبية بحق مؤسسته أو مجتمعه أو أمته برمتها لا ريب أنه سيكون أعظم جرماً وأقسى حكماً، وهذا يستدعي أن تراجع هذه الطائفة التي تحترف نشر اليأس مواقفها، وتغير مسلكها، وإلاّ سوف يلحقها الذم في الدنيا والآخرة.

(٤) رواه مسلم في صحيحه، باب النهي عن قول هلك الناس، برقم ٦٦٨٣

يرى بعض أهل الخبرة بالنفس البشرية أن بعض النفوس تخفي عجزها وكسلها وعدم رغبتها في المشاركة في أي عمل إيجابي، خلف هذه المنهجية التي تسعى إلى بث اليأس ليصبح ثقافة عامة، ويوضح هذا المسلك قول الله تعالى في البخلاء ﴿ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ ﴾ سورة الحديد (الآية: ٢٤)، ليصبح البخل ظاهرة، فلا يلحق الذم شخصاً بعينه، ويتوهم البخلاء ومن قبلهم من الكسالى والعجزة أنهم بهذه الطريقة يختفون بين الزحام الذين أسهموا في صناعته.

يلحق الذم كذلك، بمن يكون سبباً في هلاكها، من خلال ما يروج له داخل صفها، فإن هذا الصنف هو الذي يسبب هلاك الأمة، بما يصدره من أحكام جائرة.

إن الذي يُسيء إلى أمته بهذه الأحكام، وينشر في صفوفها ما يتخيل من أوهام، يرتكب جريمة مركبة، حين يهلك نفسه، ويكون عاملَ هدمٍ، في جسم الأمة ومعيناً على هلاكها.

قد يصدر هذا كله، عن هذا النفر من أبناء الأمة عن غير قصد، وربما يكون بعضه عن حسن نية، وغيرةٍ طائشةٍ، لكنها لا تشفع له.

قد يكون الترويج للهلاك بصور متعددة، منها احتراف جلد الذات، والمبالغة في تحليل الواقع، حتى يستنفذ الجهد، ويُصبح غايةً في حد ذاته، والمبالغة في ذكر السلبيات كذلك، وتجاهل الإيجابيات على كثرتها، والتهويل من العقبات، والتهوين من القدرات، وكأن شغلهم الشاغل إغلاق الباب، أمام أية محاولة نهوض بالأمة، أو السعي لتصحيح مسارها.

إن هؤلاء كضيف أبى دلف، الذي دخل عليه يعوده، بسبب داء أصاب ركبتيه، فقال له هذا الرجل، إني أحفظ بيتاً من الشعر تحدث عن داء الركبتين، ولكني نسيت صدره، ولا أذكر إلا عجزه، وهو قول الشاعر وليس لداء الركبتين طبيبُ.

قال له أبو دلف قاتلك الله يا هذا، هلاّ ذكرت صدر البيت، ونسيت عجزه، أفنقول لهؤلاء، ما قال أبو دلف لضيفه؟.

يؤكد الحديث النبوي المتقدم على أهمية الثقة بالنفس، وعلى ضرورة العمل من أجل بث الأمل، ورفع المعنويات، والتذكير بما تملك الأمة من إمكانات. فإن امتداح الخير، يجلب الخير، والإشادة بالحسنات، تأتي بالمزيد من الحسنات.

إن الرواد في هذه الأمة، وهم يستذكرون مكانة الأمة، ودورها الحضاري في الماضي. ويستحضرون إمكاناتها في الحاضر، بحاجة إلى خطوة واحدة إلى الوراء، ووقفة تأمل، بغية المراجعة، لا التراجع.

يرصدون مكامن القوة، ومكامن الضعف معاً، ويقسمون المشكلة الكبرى، إلى مشاكل صغيرة، حتى لا تستعصي على الحل، ويجعلون من أنفسهم، ومن الناس جزءاً من الحل، كما كانوا من قبل جزءاً من المشكلة.

تواجه الأممَ كلّها المصاعبُ، وهي تبني نفسها، وتجوِّد أعمالها، لكن صنّاع الحضارة فيها، ورواد البناء يراجعون لا يتراجعون ويهبون ولا يهابون.

لا ينكر منصف أن المجتمع الغربي، أنجب عبر عقود مضت، عظماء كان لهم دور ظاهر، في إخراج مجتمعاتهم من عصر الانحطاط إلى عصر التقدم، والحضارة، والرقي المادي، بصورة مذهلة.

تشهد المؤسسات الغربية بعامة، تفوقاً على غيرها، وتقدم للبشرية إنجازات، في شتى المجالات، لا يدانيها فيها أحد، وتُعد المؤسسات التعليمية، بخاصة، إنموذجاً يُحتذى، وأملاً يُرتجى في مجالها.

إن هذه المؤسسات وعلى الرغم من تميزها، وجودة أعمالها، إلاّ أنها تعاني، كما تعاني غيرها من المؤسسات، من سلبيات لكن القائمين عليها، يملكون القدرة على المراجعة، وتصحيح المسار.

يشهد لهذا ما نشرته مؤسسة فرانكلين كوفي[٥]، وهي مؤسسة كبرى، تعمل في ميدان الاستطلاعات، ذات منزلة مرموقة، ونتائجها موثوقة.

لقد جاء في دراسة شملت ٢,٥ مليون شخص أن ٢٢٪ منهم فقط أجابوا بنعم عن سؤال يقول: هل تشعرون بالتقدير، في مؤسساتكم؟

قد تُستهجن هذه النسبة، لكن الأكثر استهجاناً، أن نعلم أن الدراسة نفسها، ذكرت أن ٩٪ فقط من هذا العدد الهائل، يعتقدون أن الفريق الذي يدير العمل، يملك أهدافاً، واضحة قابلة للقياس.

(٥) ستيفن كوفي، *العادة الثامنة*، مؤسسة فرانكلين، ص ٤٩٤

أما ثالثة الأثافي، التي وردت في هذه الدراسة، فتبين أن ١٠٪ فقط، يعتقدون أنه يتم قياس النجاح بشكل صحيح، وصريح.

على الرغم من هذه النتائج المخيفة، والقاتلة في نظرنا، وفي ثقافتنا. والسلبية إلى أبعد الحدود، إلا أن هذه المؤسسات في الغرب تمضي في طريقها، بكل ثقة وثبات.

إن السبب المباشر لهذا المسلك، انتشار ثقافة المراجعة، لا التراجع في هذه المؤسسات، إنها تواجه الأخطاء، والسلبيات بكل صراحة، ووضوح، وتصنع منها دافعاً نحو النجاح والطموح.

ثمة جهات، ومجتمعات، ومؤسسات، تُحسن التعامل مع الأخطاء، وتعرف جيداً، كيف تواجه السلبيات لتجعل من هذه، وتلك وسائل للتصحيح، ومظاهر للإيجابية، كما قال غاندي: لولا ظلمة الخطأ، ما أشرق نور الصواب.

إن المؤسسات التي تنهض بعد عثرات، وتُحسن معالجة الثغرات، هي التي تستحضر أن البشرية تستفيد من أخطائها، أكثر من صوابها، تراجع ولا تتراجع، قد تسير ببطء، لكنها لا تتوقف وتصل في النهاية. فهذا إديسون، وهو يسعى لصناعة المصباح، ويُجرى مئات التجارب التي كانت تبدو فاشلة، استطاع من خلالها أن يُسجِّل ١٠٩٣ براءة اختراع، كانت ثمرة أخطاء، في ظاهرها.

إن أمتنا التي كانت تملك ماضياً عريقاً لا مثيل له، وتمتلك الآن إمكانات لا مثيل لها كذلك، يلزم أبناءها أن يواجهوا أنفسهم، بأربعة أسئلة كبيرة: من نحن ؟ وأين نحن؟ وإلى أين نحن؟ وماذا نريد؟

إن مجرد التفكير في هذه الأسئلة، قبل الإجابة عنها، كفيل بأن يضع أمام رواد الأمة معالم هداية، تعلن من خلالها النفير، وتضع الأمة على طريق التحول في التفكير، والإقبال على التغيير. استحضر في هذا المقام حكمة، تستحق التقدير، قالها أنشتاين إن المشاكل المهمة التي نواجهها، لا يمكن أن تحل في مستوى التفكير نفسه، الذي كنا فيه عندما أوجدنا هذه المشاكل، ولقد اختصر هذا الرجل علينا الكثير من التحليل، والتعليل.

تنادي الأمةُ كُلُّها، على روادها، صنَّاع حضارتها، قائلة لهم: إن الرائد لا يكذب أهله، تقتضي المناصحة، والمكاشفة من هؤلاء الرواد أن يبينوا للأمة، أن التغيير سنَّة اجتماعية، وليست سنَّةَ أفراد، وأن للمجتمعات وللأمم آجالاً، كالأفراد تهرم، وتموت، وتترك مكانها لغيرها من الأمم الفتية.

أسوق في ختام هذا العنوان كلاماً، يتحدث عن أحوال الأمم الغربية، ليس لي فيه إلاَّ الاقتباس فقط، أحسب أن إيراده يسهم في توضيح بعض المعالم، التي طفقت أعرض لها، في الصفحات الماضيات، وأبرزها أن الأمم لا تبقى على حالة واحدة.

وضع الكاتب باتريك بوكنان، المرشح الجمهوري للرئاسة الأمريكية في حينه، وأحد أبرز الوجوه الإعلامية في أمريكا كتاباً بعنوان " موت الغرب عام ٢٠٥٠م" وقد صدر هذا الكتاب سنة ١٤٢١هـ.

جاء في هذا الكتاب، نظرية تقول بانقراض مَنْ هم من أصول أوروبية، بحلول عام ٢٠٥٠م، وقد اعتمد الكاتب في هذا الطرح المثير للجدل، على إحصائيات محايدة، صادرة عن منظمات الأمم المتحدة.

تشير هذه الإحصائيات إلى نسبة الأوروبيين إلى سكان العالم، سوف تتقلص بحلول عام ٢٠٥٠م إلى ١٠٪ فقط، وسوف يكون ثلث الأوروبيين في سن الستين، أو أكثر، في العام نفسه.

سوف تخسر أوروبا ما يوازي الكثافة السكانية الحالية لكل من ألمانيا، وبولندا، والدانمارك، والسويد، وفنلندا، مجتمعين، ويقول المؤلف إنه بحلول عام ٢٠٥٠م، سوف يتلاشى ٣٣ مليون ألماني، و١٦ مليوناً من الإيطاليين، و٣٠ مليوناً من الروس، ولن تسلم بقية الشعوب الأوروبية من نقص بنسب متفاوتة.

ليس من مقاصد هذا الكتاب إيراد مثل هذه المعلومات، لولا أني رأيت فيها دليلاً على أن الأمم تتغير أحوالها، وتتبدل أوضاعها، والتاريخ شاهد من قبل، على هذه السُنَّة الجارية.

قد يرى قارئ ما، أن بعض ما ورد في هذا العنوان، يُعد كلاماً عاطفياً، لا صلة له بالجودة، بيد أن العاطفة وقود، لابد منه للسير في طريق الجودة، فإن الحماس إلى تحقيق الجودة، تغذيه العاطفة، وشرف الانتماء والشوق إلى العطاء والغيرة على الأمة، فيحسن والحالة هذه أن نفسح للعاطفة، والحماس مكاناً.

يُمكن القول، في ضوء ما تقدم، أن لا عذر للمؤسسات التعليمية، التي تنتمي لهذه الأمة، أن لا تشد الرحال بكل حزم وقوة إلى الجودة الشاملة، بخاصة تلك المؤسسات التي وضعت بين يديها إمكانات مادية، هائلة، والأمر كما قال الشاعر:

ولم أر في عيوب الناس، عيباً كنقص القادرين، على التمام

obeikandl.com